الباب الثاني عشر

القدس في أدبيات الرحالة المسلمين والأجانب

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب الثاني عشر

القدس في أدبيات الرحالة المسلمين والأجانب

لم تحظ مدينة في الدنيا بما حظيت به القدس من كتابات وأوصاف على مر تاريخها ولم تقتصر الكتابات والأوصاف لهذه المدينة سواء كان ذلك في الكتب السماوية أو الأحاديث النبوية الشريفة أو أقوال الأنبياء والمفكرين والزوار وأصحاب الأفكار والأقلام والأدباء والشعراء، ذلك بأنها لم تقتصر على عرق معين أو عقيدة واحدة أو دين فريد وقد امتازت بتعدد الأعراق والأجناس والأديان والأمم التي مرت عليها عبر تاريخها منذ عصور موغلة في القدم، على الرغم من إضفاء العنصر العربي والعقيدة الإسلامية عليها تعتبر أطول فترة عاشتها، فمن العهد الكنعاني مرورا بالحضارات المتعاقبة فلكل ممن عاصرها وعاش فيها وتنسم هوائها ولامس ترابها ترك له أثرا دونه على جدرانها أو خط له رسما على أفنيتها فالأبنية وما كتب عليها ولفائف الأوراق وما سطر فيها لأرث إنساني توارثته الأجيال لهذه المدينة المقدسة.

أما نصيبها في أدبيات الرحالة من المسلمين والأجانب فقد كان له نصيب وافر ويمكنني أن أشير ولو بالإيجاز عما كتبه هؤلاء الرحالة عنها عبر عصور متعاقبة.

وصف القدس على لسان احد الرحالة والزوار النصارى في العهد العباسي

زار السائح برنارد الحكيم القدس عام 870 م القرن الثالث الهجري، فيصف حالها قائلا: "إن المسلمين والمسيحيين في القدس ومصر على تفاهم تام، حتى أنني إذا سافرت ونفق في الطريق جملي أو حماري وتركت أمتعتي مكانها وذهبت لاكتراء دابة من البلدة المجاورة عدت فوجدت كل شيء على حاله لم تمسه يد، فقانون الأمن العام في تلك الديار

يقضي على كل مسافر بالليل أن يكون بيده وثيقة تبين هويته فإذا عدمها زج في السجن حتى يحقق في أمره ويتضح قصده [1]

كان اهتمام هذا السائح منصبا على الأماكن الدينية فقط ولم يذكر الكثير عن غيرها وأردف قائلا " إنه نزل في نزل معد للحجاج الذين يتكلمون اللغة الرومانية ذلك النزل الذي أسسه الملك شارلمان وبجانبه سوق ترتب على الشخص الذي يعمل فيه أن ينقد المحتسب الذي يناظره قطعتين من الذهب كل سنة ". [2]

المقدسي المتوفى سنة 380هـ وفق 990م :

أ) وصفها في عصره قائلا" وفي الخامس من رمضان سنة 438هـ (16 آذار – 1047م) بلغنا بيت المقدس، وكان قد مضى على خروجنا من بلدنا سنة شمسية، وطوال رحلتنا ما نقر في مكان قط ولا وجدنا راحة كاملة، وأهل الشام وأطرافها يسمون بيت المقدس (القدس) ويذهب إلى القدس في موسم الحج من لا يستطيع الذهاب إلى مكة من أهل هذه الولايات، فيتوجه إلى الموقف ويضحي ضحية العيد كما هي العادة، ويحضر هناك لتأدية السنّة في بعض السنين أكثر من عشرين ألف شخص. وفي أوائل ذي الحجة، ومعهم أبناؤهم، كذلك يأتي لزيارة بيت المقدس من ديار الروم كثير من النصارى واليهود وذلك لزيارة الكنيسة والكنيسة هناك، وهناك كنيسة عظيمة سيأتي وصفها في مكانه. وسواد ورساتيق بيت المقدس جبلية كلها، وزراعة وأشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء، والخيرات بها كثيرة ورخيصة، وفيه أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين ألف من زيت الزيتون يحفوظنها في الآبار والأحواض، ويصدرونها إلى أطراف العالم، ويقال إنه لا يحدث قحط في بلاد الشام، وسمعت من ثقات أن

(1) نقولا، زياده، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، ص 55.

(2) العارف، المفصل في تاريخ القدس، سبق ذكره، ص 124.

وليا رأى النبي عليه السلام في المنام فقال لـه: سـاعدنا في معاشـنا يـا رسـول الله" فأجابه النبي عليه السلام: "عليّ خبز الشام وزيته".

تغنّى المقدسي كثيراً بمزايا بلده بيت المقـدس، واصـفا إياهـا قـائلا "بيـت المقـدس ليس في مدائن الكور أكبر منهـا وقـصبات كـثيرة أصـغر منهـا كإصـطخر وقـاين والفرما" لا شديدة البرد وليس بها حر، وقلما يقع بها ثلج، وسألني القاضـي أبـو القاسم ابن قاضي الحرمين عن الهواء بها فقلت، سجسج لا حر ولا بـرد شـديد، قال: هذا صفة الجنة، بنيانهم حجر لا ترى أحسن منه، ولا أتقـن مـن بنائهـا، ولا أعف من أهلها ولا أطيب من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها، ولا أكـبر مـن مسجدها ولا أكثر من مشاهدها، عنبها خطير، ولـيس لمنفعتهـا نظـير، وفيهـا كـل حاذق وطيب، وإليها قلب كل لبيب ولا تخلو كل يوم من غريب.

وقال يصف سورها. ولها ثمانية أبواب حديـد. "ولا أعـزّ مـن أهـل بيـت المقـدس لأنك لا ترى بها بخساً ولا تطفيفاً ولا شربا ظاهراً ولا سكران ولا بها دور فـسق ولا إعلانا مع تعبد وإخلاص ولقد بلغهم أن الأمـير يـشرب فتـسورا عليـه داره. وقد استغرق في مناقب بيـت المقـدس فوصـف الهـواء والمـاء والثمـار والخـيرات والمعاش والمسجد الأقصى ومساحاته[1].

بيت المقدس في وصف الرحالة ناصر خسرو عام 438 هـ

وصف ناصر خسرو لبيت المقدس: "هي مدينة مشيدة علـى قمـة الجبـل، لـيس بهـا ماء غير الأمطار، ورساتيقها ذات عيون، والمدينة محاطة بسور حصين، من الحجر والجـص وعليها بوابات حديدية، وليس بقربها أشجار قط، فإنهـا علـى رأس صـخر، وهـي مدينـة كبيرة كان بها في ذلك الوقت عشرون ألف رجل، وبها أسواق جميلـة وأبنيـة عاليـة، وكـل أرضها مبلطة بالحجارة، وقـد سـوروا الجهـات الجبليـة والمرتفعـات، وجعلوهـا مـسطحة،

(1) المقدسي، سبق ذكره، ص 165-168.

بحيث تغسل الأرض جميعها وتنظف حين تنزل الأمطار، وفي المدينة صناع كثيرون، لكل جماعة سوق خاصة، والجامع شرقي المدينة وسوره هو سورها الشرقي، وبعد الجامع سهل كبير يسمى الساهرة وفي بيت المقدس مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة ويصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف المقرر لهذا المستشفى.[1]

ويمر ماء عين سلوان بقرية شيدّوا فيها عمارات كثيرة وغرسوا بها البساتين، ويقال إن من سيستحم من هذه العين يشفى مما ألم به من الأوصاب والأمراض المزمنة ويصف بناء المسجد الأقصى "يوجد بالمسجد مائتان وثمانون عمودا والأعمدة مصفوفة على عشرين صفا، وأرضه مفروشة بالسجاد الجميل.وارتفاع كل باب يبلغ 11 ذراعا وعرضه 6 أذرع، وأن أحدها من نحاس مشغول بدقة حتى يظن أنه صنع في بغداد.

وعلى جوانب الصخرة بني أربعة دعائم مربعة بارتفاع حائط الدكة، وبين كل دعامتين على الجوانب الأربعة عمودان أسطوانيان من الرخام بنفس الارتفاع، . وأن المسافة ما بين أرضية القبة إلى قمتها ثلاثين ذراعا وتستند إلى أعمدة ودعامات ارتفاعها عشرون ذراعا [2]

ويصف كنيسة القمامة قائلا:(وللنصارى كنيسة في بيت المقدس تسمى بيعة القمامة لها عندهم مكانة عظيمة، ويحج إليها في كل سنة كثير من بلاد الروم، ويزورها ملك الروم متخفيا حتى لا بعرفة الناس. [3]

(1) خسرو، ناصر، سفر نامه، ط3، بيروت، دار الكتاب الجديد، تحقيق، المحقق يحي الخشاب، 1983م، ص 55-57.

(2) المصدر نفسه، ص 58/ 70.

(3) نفس المصدر، ص 75.

القدس في وصف يحي بن سعيد الأنطاكي من كتابه(ذيل التاريخ انتهى فيه سنة 42هـ)

وشرع الظاهر [1] في هذه السنة في بناء سور مدينة القدس، بعد بناء سور مدينة الرملة، وخرّب المتولون لعمله كنائس كثيرة في ظاهر المدينة وأخذت حارتها، وعولّوا على نقض كنيسة صهيون وكنائس غيرها أيضا، ليحملوا حجارتها إلى السور، فحدث في البلد زلزلة مهولة لم يشاهد ولا سمع بمثلها، آخر نهار الخميس لعشر خلون من صفر سنة 425 هـ – 1033 م، وهلك من الناس فيها ما يعظم مقداره، وانقلبت مدينة أريحا على أهلها، وكذلك نابلس وقرى قريبة منها، وسقطت قطعة من جامع بيت المقدس وديارة وكنائس في عملها، وسقط كذلك أبنية في عكا، ومات فيها جماعة، وغاب ماء البحر من مينا ساعة، ثم رجع إلى سلفه وخلفه، في نظر الأمير الأجل الأعز علم الملك نصر الدولة ذي الفضيلتين0 وجرى ذلك على يد الفاضل أبي الحسين عبد الرحمن بن الحسن بن علي الأنصاري المعروف بالأجوف سنة ثمان وخمسين وأربعمائة."

القدس في عصر الراهب دانيال شاهد عام 1106م

"إن بيت المقدس مدينة واسعة يحميها 4أربعة جدران قوية، ومبنية على هيئة مربعة، حيث أن جهاتها الأربع لها نفس الطول، ويحيط بها كثير من الأودية القاحلة والجبال الصخرية، والمنطقة خالية من الماء بشكل مطلق، حيث لا يجد المرء نهراً أو آباراً أو ينابيع قرب بيت المقدس، باستثناء بركة سليمان (Pool of Siloam ؟!وفي المناطق المجاورة لبيت المقدس تكثر أشجار الكرمة وأشجار الفاكهة، وأشجار التين والزيتون وأشجار الخروب وعدد لا نهاية له من مختلف الأشجار والنباتات، وعلى جبل الزيتون، وفي الجهة الجنوبية منه وبالقرب من موقع صعود السيد المسيح هناك كهف عميق يحتوي

(1) الظاهر، هو الخليفة علي أبو الحسن، الخليفة الفاطمي السابع، تولى الأمر 411– 427هـ.

على ضريح القديس بيلادجيا (Saint Pelagia) المحظي، وهو رجل متقشف مستعد أن يعيش هناك. "[1]

القدس على لسان الرحالة الألماني ثيودوريتش: قال "إنها مدينة جبلية، لكن صخورها جميلة، فيها الأبيض والأحمر والرخام المتعدد الألوان، وكلها صالحة لأخذ حجارة البناء، أما حيث يتجمع بعض التراب بين الصخور فتنمو جميع أنواع الفاكهة، وتكون الجبال مكسوة بالكروم والتين والعنب والزيتون، وأما الأودية، فتملأها الحبوب والبساتين، أكثر شوارعها مبلطة بألواح كبيرة من الحجارة، وهي مسقوفة بعقود حجرية، فيها نوافذ يدخل منها النور، وبيوتها مبنية من الحجر الجميل النقش، وأسطحها مستوية، وليس لديهم أي ماء سوى ماء المطر الذي يجمعونه في آبار محفورة لهذه الغاية، والخشب غالي الثمن في القدس لأنه يأتيها من مكان بعيد ألا وهو لبنان "[2]

كانت الشوارع المبلطة مكتظة بالأمراء، والنبلاء، والجنود بألبستهم الزاهية، وبغيرهم من الجماهير التي تنتسب إلى مختلف الشعوب واللغات. وكان للاتين خمس عشرة كنيسة في القدس، وتسع على جبل الزيتون، فضلا عما كان لغيرهم من الكنائس، وكانت الشوارع المحيطة بكنيسة القيامة أكثر شوارع المدينة وأسواقها ازدحاما وحركة، ففيها تباع التوابل والحرائر والفضيات واللحوم والحبوب والأعشاب والعقاقير وغيرها "[3]

---

(1) دبليو ويلسون، الكولونيل السير سي 0، **رحلة الحاج الروسي** "دانيال الراهب في الديار المقدسة "1106–1107م نقلها إلى العربية وعلق عليها الدكتور سعيد البيشاوي وداود إسماعيل أبو هدبه ط1 1992م ص

(2) رو اد الشرق العربي، مصدر سابق، ص 162

(3) 88 - **Jerusalem and Crusades P Blyth.**

القدس في كتب الرحالة المسلمين

كان يتردد على بيت المقدس في العهد الصليبي مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة، بن مرشد بن علي المقلد بن نصر بن منقذ الكناني، ألف كتاباً اسماه: (كتاب الاعتبار) جاء فيه:

"كل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين، فمن جفاء أخلاقهم قبحهم الله أنني كنت إذا زرت البيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى، وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة وفيه الداوية، وهم أصدقائي يخلون لي ذلك المسجد الصغير أصلي فيه فدخلته يوما فكبرت ووقفت في الصلاة، فهجم عليّ واحد من الإفرنج مسكني ورد وجهي إلى الشرق وقال: كذا صلي: فبادر إليه قوم من الداوية، أخذوه وأخرجوه عني. وعدت أنا إلى الصلاة فأغلفتهم. وعاد هجم علي ذلك نفسه. ورد وجهي إلى الشرق. وقال: كذا: صلي. فعاد الداوية، دخلوا إليه وأخرجوه، واعتذروا إليّ وقالوا: هذا غريب، وصل من بلاد الإفرنج هذه الأيام، وما رأى من يصلي إلى غير الشرق فقلت حسبي من الصلاة، وخرجت"[1]

يوم بيوم في شهادات مؤرخيهم

لنقف قليلاً ولنقارن يوم الاحتلال الصليبي لبيت المقدس، وما جرى في هذا اليوم 14 من شهر يوليو حزيران 1099م، من فظائع يندى لها جبين البشرية من مذابح وفظائع وكوارث إنه يوم أسود في تاريخ الصليبيين الحاقدين بصبيحة يوم الجمعة 27 من شهر رجب وفق 2 أكتوبر عام 1187م الذي يقابله قبل ثمانية وثمانين عاما، فقد تم تحرير القدس على يدي القائد الملهم صلاح الدين، وما قام به من عطف وتسامح وإكرام للغزاة.

ويقول ول ديورانت: نقلا عن بعض معاصريهم لتلك الحملات"إن النساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحراب والأطفال الرضّع يخطفون من أحضان أمهاتهم ويقذف

(1) عارف العارف، المفصل، مصدر سابق، ص 167.

بهم من فوق الأسوار أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد وذبح المسيحيون ألفا من المسلمين الذين بقوا في المدينة، أما اليهود الذين بقوا أحياءً فقد سيقوا إلى كنس لهم وأشعلت فيهم النيران أحياء[1]

أما ستيفن رنسيمان فيقول: "الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية، فبينما كان الفرنجة منذ ثمان وثمانين سنة يخوضون دماء ضحاياهم، لم تتعرض الآن داراً من الدور للنهب، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه، إذ صار رجال الشرطة، بناء على أوامر صلاح الدين، يطوفون بالشوارع والأبواب ويمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين وبذل صلاح الدين للأرامل واليتامى من خزائنه العطايا كل بحسب حالته، والواقع أن رحمته وعطفه كان على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين في الحملة الصليبية الأولى. "[2]

القدس بأقلام الرحالة المسلمين:

القدس على لسان الرحالة الإدريسي: توفي هذا الرحالة عام 506هـ ويصفها قائلا "مدينة جليلة قديمة البناء، وكانت تسمى إيليا، وهي على جبل يصعد إليها من كل جانب، وهي ذاتها طويلة، وطولها من المغرب إلى المشرق، وفي طرفها الغربي باب المحراب، وهذا الباب عليه قبة داود، وفي طرفها الشرقي باب يسمى باب الرحمة، وهو مغلق ولا يفتح إلا من عيد الزيتون لمثله، ولها من جهة الجنوب باب صهيون، ومن جهة الشمال باب عمود الغراب.

أما وادي جهنم فهو "ما يلي بيت المقدس في ناحية الجنوب، فإنك إذا خرجت من باب صهيون وسرت مقدار رمية حجر وجدت كنيسة صهيون، وهي كنيسة جليلة حصينة وفيها العلبة التي أكل فيها السيد المسيح مع التلاميذ وفيها المائدة باقية إلى الآن، ولها ميعاد في يوم الخميس، ومن باب صهيون تنزل في خندق يعرف بواد جهنم، وفي

(1) ول ديورانت ، مصدر سابق، م4 ص 25.

(2) ستيفن رنسيمان ، مصدر سابق، ص 753.

obeikandl.com

طرف الخندق كنيسة على اسم بطرس، وفي هذا الخندق عين سلوان وهي العين التي أبرأ بها السيد المسيح الضرير الأعمى، ولم يكن له قبل ذلك عينان ومن هذه العين المذكورة إلى الجنوب الحقل الذي يدفن فيه الغرباء، وهي أرض اشتراها السيد لذلك وبقربها بيوت كثيرة منقورة في الصخر وفيها رجال قد حبسوا أنفسهم عبادة"[1]

القدس على لسان الهروي: توفي الهروي عام 611 هـ وفق 1215 م واصفا، ما كتبه عن الأماكن المسيحية "وبالقدس كنيسة اليعاقبة، بها بئر يقال أن المسيح أغتسل منها، وآمنت السامرية على يده عندها. ويزورونها ويعتقدون بها. وبالقدس برج داود ومحرابه المذكور في القرآن العزيز وبظاهر القدس كنيسة السابق، يقال إن المسيح رفع منها إلى السماء وكنيسة صهيون يقال إن المائدة نزلت على عيسى بن مريم والحواريين بها.

وأما زيارات الملة المسيحية فأعظمها كنيسة قمامة (القيامة) وعمارتها من العجائب المذكورة ... ولهم فيها المقبرة التي يسمونها القيامة.

القدس في وصف معجم البلدان لياقوت الحموي المتوفي عام 626 هـ وفق 1229 م. قوله "والذي شاهدته منها أن أرضها وضياعها وقراها كأنها جبال شامخة، وليس حولها ولا بالقرب منها أرض وطيئه ألبته، وزرعها على أطراف الجبال بالفؤوس لأن الدواب لا صنع لها هناك، وأما نفس المدينة فهي على فضاء في وسط تلك الجبال وأرضها كلها حجر من الجبال التي عليها وفيها أسواق كثيرة وعمارات حسنة، وتحدث عن الحرم الشريف ثم عاد بعد ذلك إلى وصف المدينة، وفيها مغاير كثيرة، ومواضع يطول عددها، مما يزار ويتبرك به، ويشرب أهل المدينة من ماء المطر، وليس فيها دار إلا وفيها صهريج، لكنها مياه رديئة أكثرها يجمع من الدروب، وإن كانت دروبهم حجارة ليس فيها ذلك الدنس الكثير، وبها ثلاث برك عظام: بركة بني إسرائيل، وبركة سليمان (عليه السلام) وبركة عياض عليها حماماتهم.

---

(1) الإدريسي ، **نزهة المشتاق** ج4 ص 362.

لطالما أننا في وصف القدس وعرصاتها والكنائس وساحاتها والطرق وحاراتها، فمن الجدير بنا أن نسمع ما يصفه ياقوت الحموي عن المساجد وباحاتها والمقدسات وزياراتها، وأنهى حديثه عن المسجد الأقصى وصف عيان ومشاهدة في العهد الأيوبي قائلا: "من أعظم محاسنه أنه إذا جلس إنسان في أي موضع منه يرى أن ذلك الموضع هو أحسن المواضع وأشرحها ولذا قيل إن الله نظر إليه بعين الجمال ونظروا إلى المسجد الحرام بعين الجلال "[1]

القدس بأقلام الرحالة الغربيين.

ويحدثنا الحاج بور شارد من دير جبل صهوين "أما بيت المقدس، مدينة الإله الأعلى، فهي تقع في منطقة جبلية، وتحيط بها الجبال من كافة الجوانب، وعلى الرغم من ذلك فإن أراضيها توصف بأنها خصبة، كما توصف في هذه الأيام، ويستثنى من ذلك الجانب الشرقي من المدينة الذي يقع باتجاه الأردن، أما المناطق المجاورة للمدينة فهي أيضا تمتاز بالخصوبة، ويمكن القول بأنها تقع على منحدر هضبي، وأن موقعها يتخذ شكلاً مزدوجاً، مصدر الجانب الجنوبي والجانب الغربي، فالمدينة تقع على طول حافة جبل صهيون جنوبا، أو بالأحرى فإن جزءاً منها يقع على جبل صهيون نفسه، والجزء الأخر يقع على منحدر ذلك الجبل، أما طولها فيمتد من جبل صهيون باتجاه الشمال، ويستمل الجانب الغربي من مدينة بيت المقدس على جبل جيحون ومنها يمتد عرضها شرقا حتى وادي قدرون أو وادي جوسفات، وهما اسمان لنفس الموقع. وهي مدينة واسعة وجميلة، كما سوف أخبرك، ولا تقع في مكان مختلف عما كانت علية في وقت آلام السيد المسيح (عليه السلام) ليلة العشاء الأخير، حسبما أوضح عبثا من قبل البعض، يمكن القول بأن

(1) الحموي، ياقوت، **معجم البلدان** 5 / 166 – 171.

هذا الرحالة قد أجاد في وصف هذه المدينة بدقة متناهية، حيث أنه استعرض تلالها ووديانها وجبالها وسهولها ومياهها وبيوتها وموقعها واتصالها بالأماكن الأخرى، .[1]

يوحنا الورزبرجي: زار هذا الرحالة القدس ما بين عامي 1160م – 1170م ويبدو أنه زارها قبل أن يستردها صلاح الدين عام1187م فيقول في كتاباته وتجدر الإشارة إلى أن الصليبيين حولوا قبة الصخرة إلى كنيسة أسموها معبد السيد Templum Domini كذلك أطلقوا على المسجد الأقصى معبد سليمان Templum Solomnis وقسموه إلى ثلاثة أقسام، الأول كنيسة، والثاني مسكنا للداوية والثالث مستودعا لذخائرهم، كذلك جعلوا من السراديب التي أسفل المسجد إسطبلا لخيولهم وجمالهم، ويبدو أن يوحنا الورزبرجي قصد بهذا الإسطبل، القسم الخاص بدواب الداوية، وتعكس الأرقام التي قدمها لنا ذلك الرحالة، مدى إمكانيات الداوية الحربية، وقدرتهم على امتلاك آلاف الخيول والجمال وهي لازمة لعمليات القتال الكر والفر وحمل الأمتعة ومعدات الحرب.[2]

القدس في زيارات الزوار اليهود

في تلك الفترة زار فلسطين في تلك الفترة سائحان يهوديان وهما بنيامين التودلي (التو طلي) الأسباني سنة 1160 م 1173 م (555– 685 هـ) وبتاحيا بين 1170 م 1187 م (565 هـ 583 هـ).ذكر الأول أن زلزالاً قوياً هز سوريا وقُتل من أهل فلسطين عشرون الفا. وروى قصة مؤداها أن عاملين كانا في جبل صهيون عثرا على قبر الملك داود، ورأيا قاعة كبيرة مزينة بالذهب والفضة، لكنهما ما كادا يدخلان حتى عصفت ريح شديدة قذفت بهما خارج القاعة فاقدي الوعي ولم يجرؤا بعد ذلك إلى العودة إلى ذلك المكان نفسه، وقد سد المكان المنفتح بجدار.

---

(1) الحاج بورشارد من دير جبل صهيون (**وصف الأرض المقدسة**) ترجمة د . سعيد عبد الله البيشاوي،ط1، عمان: دار الشروق ؛ 1995م، ص 127.

(2) عوض، محمد مؤنس أحمد، **الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية** 1099 م،1187م ص 126.

أما بتاحيا الراتسبوني فهو يهودي ألماني ، وقد ذكر أنه كان في القدس أيام زارها يهودي واحد فقط، هو الحاخام إبراهيم هلتسيفع (الصباغ) وسمي كذلك لأنه كان يعمل في هذه الصناعة، وقد كان يدفع ضرائب باهظة للملك الذي كان يحكم آنذاك وقد اصطحبه الرابي إبراهيم لرؤية جبل الزيتون"[1]

القدس على لسان أوليا جلبي

"القدس بلد عظيمة، كائنة على هضبة مرتفعة، هواؤها عليل وماؤها عذب، وسكانها نضار الوجوه، إنها مهوى أفئدة الكثيرين من الناس، لا من حيث قدسيتها فحسب، بل من حيث اقتصادياتها، ووفرة حاصلاتها أيضا". ثم مدح مأكولاتها ومشروباتها، فوصف خبزها، وعنبها المتنوع الأشكال، والطعم والألوان، وصابونها الممسك، وعطرها، وبخورها، ومباخرها النحاسية. وذكر في نفس الوقت محاجرها الكثيرة، وجبالها المليئة بأشجار الزيتون، وأراضيها المغطاة بالكروم والبساتين. إلى أن قال: إنه كان فيها يومئذ ثلاثة وأربعون ألف كرم، وأنه رأى ألفاً وخمسمائة منطرة قائمة في وسط هذه الكروم، وأن الأراضي الكائنة بين باب الخليل والبقعة خالية من الدور والمنازل، ومليئة بالكروم والبساتين. وأنه ما من أحد من سكان القدس، إلا ويعيش في كرم من هذه الكروم شهرين أو ثلاثة في السنة، ووصف (البقعة) من هذه الناحية، فأسماها لهذا السبب (باغستان). إلى أن قال: "فيها عدد كبير من الأعيان والعلماء والأشراف والفضلاء والرجال، الذين ينتمون إلى الطريقة المولوية ويتقاضى الواحد منهم خمسمائة (اقجه)، كما أن فيها عدداً كبيراً من التجار وأرباب الحرف وهؤلاء يعملون بالقول المأثور: "الكاسب حبيب الله".

يستطرد العلامة (عارف العارف) في كتابه المذكور عن القدس في تلك الحقبة إذ يورد قائلا: "عد جاويش زاده محمد باشا سكان القدس، فوجد أنهم 46000ألف نسمه ينتسبون إلى مختلف الأمم والطوائف، بيد أن أكثرهم عرب مسلمون. بينهم عدد من أهل

(1) المصدر نفسه، 1992م.

الوظائف في الحرم، لا يقلون عن الألف، ويتناولون راتبهم من الذهب الذي يأتي به صاحب (أمين الصرة)من الآستانة في كل سنة، أغنياؤهم يلبسون السمور، والقنباز المصنوع من الجوخ الممتاز، والثياب المنسوجة من الصوف المعروف بالجلالي، وفقراؤهم يلبسون العباءة من النوع المعروف ب (الأجه عبا) والقنباز المصنوع من الجوخ العادي، والثياب المصنوعة من الصوف الأبيض، ونساؤهم متأدبات يلبسن على رؤوسهن طاقيات مصنوعة من الذهب أو الفضة، ويلتففن بالملايات البيض، ويحتذين بالأحذية المقفولة المعروفة بالجزم.

"في القدس ستة حمامات هي: حمام ستتنا مريم، وحمام السلطان، وحمام الشفا، وحمام العين، وحمام حمزة، وحمام البطرك، وهذا الأخير في الغالب للنصارى، وفيها ثمانية عشر سبيلا يشرب منها المار والعطشان، يهطل الثلج على جبالها، وفيها صهاريج كثيرة، وفيها كنيستان للأرمن، وثلاثة كنائس للروم، وكنيسان لليهود، وفيها مائتان وأربعون محرابا (مصلى) وسبع دور للحديث، وعشر دور للقرآن، وأربعون مدرسة للبنين وتكايا لسبعين طريقة منها: الكيلانية، والبدوية والسعدية والرفاعية والمولوية، أكثرهم أهل ذوق، وأهل طرق، ودراويش متصوفون.

"وفي القدس أيضا ألفان وخمسة وأربعون دكاناً، كلها مبنية بالحجارة والعقود المقنطرة، وفيها ستة خانات عظيمة، وأسواق كثيرة منها: (سوق السلطان) وهو أشهرها، والمسئول عن إدارة السوق هو (المحتسب) ويلقب بالأغا، ومن واجباته أن يحفظ سجلات يدون فيها أسماء التجار، وأصحاب الدكاكين، وللسوق خان تحفظ فيه جميع البضائع والأمتعة القيمة.

ومن أسواق القدس: (السوق الطويل) تباع فيه الصحون والفناجين، وآلات الطهي وأدوات المنزل، وسوق (الحلاجين) يعمل فيه الحلاجون والندافون وتجار القطن، وسوق (الغلال) تعرض فيه جميع أنواع الحبوب والغلة، وسوق (الحرير) والسوق القريب من باب السلسلة، و(سوق البزازين) ولهذا السوق باب من حديد، وفي القدس عدد غير

قليل من الصياغ وتجار الحلي والمجوهرات. وليس على وجه البسيطة نوع من أنواع الصياغة، إلا وفي القدس مثلها.

جميع هذه الأسواق مسقوفة بالعقود المقنطرة، ومرصوفة بالبلاط النقي، والطريق الكائنة بين سوق الغلال وكنيسة القيامة والمسجد العمري، مرصوفة بالبلاط من الحجم الكبير"[1]

وصف القدس على لسان هنري موندرل

وصفهاHenry Maundrell في كتاب أسماه: (رحلة من حلب إلى القدس).

A Journey From Aleppo To Jerusalem وصفا لا يختلف عن الوصف المتقدم .

"إن كانت القدس تابعة لطرابلس الشام، وأنه كان في طرابلس والذي يسمونه: (أوستان باشا) وأنه ورفاقه السياح الآخرون، انتظروا عند باب المدينة الغربي، المعروف بباب بيت لحم، مقدار نصف ساعة من الزمن، إلى أن جاءهم الإذن من الباشا بدخول المدينة. إذ كان محرماً على الفرنجة ليس دخول المدينة فحسب، بل والدنو من أسوارها قبل صدور الإذن من الحاكم، وكان على الزائرين أن يترجلوا عند ولوجهم أبواب المدينة، وأن يسلموا أسلحتهم إلى جند المرابطين على الأبواب. [2]

(1) عارف العارف ، المصدر نفسه ص 268.

(2) المصدر نفسه ص 270.

obeikandi.com